فضائل الملكة فيكتوريا

يظن كثيرون ممن لا يرون للمرأة فضلا ولا يعترفون لها بمزية عقل وحكمة ان الملكات حين يتولين لا يكن مالكات الا بالاسم فقط وان كل ما يجري من سياسة وعمل فانه يكون بامر الرجال من وزراء وسواهم ولكن الحقيقة ان ليس كل ذلك بصحيح وانه اذا صح فهو واقع على الرجال الملوك ايضاً ولاسيما في هذه الايام حيث لا حكم الا للشورى ولا رأي الا للجمهور

الا انه قد ورد عن ملكة انكلترا رحمها الله انها كانت ذات تأثير عظيم في ملكها وذات فضل عميم على كل شعبها وان ذلك قد صدر عنها بخصوصها وتم باجتهادها والحاحها بطلبه . ولقد كان في جملة ما ذكروه عن فضلها الذاتي الذي نفعت به بنات جنسها اجل نفع ان العادة كانت جارية قبل ملكها ان البنات يشتغلن بالمعادن ويستخرجن الفحم الحجري وهو عمل من اشق الاعمال واشدها خطراً حتى على شداد الرجال فان النساء كن ينزلن الى اعماق المعادن مئات من الاقدام وهن في حالة يرثى لها من الذل والشقاء والتعب فلما تولت الملكة امرت بابطال هذه العادة وقاومتها بكل جهدها حتى منعت النساء عن الاشتغال باعمال الرجال الشاقة وبذلك نقلت المرأة الفقيرة في بلادها من جحيم الفحم الى نعيم الغزل والنسج

ولقد كانت انكلترا معتادة ان ترسل المجرمين وارباب الذنوب الطائلة الى اوستراليا وتسمانيا فكان بذلك مضايقة شديدة لتلك المستعمرات ولكن لما حكمت الملكة اشارت بابطال هذه العادة وقررت استبدال النفي بالاشغال

الشاقة في نفس انكلترا وهو عمل كان منه ان الحكومة وفرت لها مبلغ ١٥ مليون جنيه من نفقة الابنية والاعمال العامة التي قام بها اولئك المجرمون كما انها منعت نقل المفاسد الى تلك الاصقاع الحديثة العهد بالمدنية والتهذيب

وقد كان مما فعلته ايضاً منعها شراء الوظائف العسكرية فان هذه الوظائف كانت تجارة من قبل وكان اقل جندي ذي مال يستطيع ان يكون ضابطاً عظيماً اذا اشترى تلك الرتبة بماله الا ان منع هذه العادة كان صعباً جداً لان الجنود كانوا قد الفوها دهراً طويلا اما هي فلم تنفك عن اللجاجة والالحاح حتى ابطلتها بالرغم عن كل الوزراء دون ان تحتاج الى اصدار لائحة مصدق عليها منهم وقد كان هذا بحيلة ابتدعها لها المستر غلادستون وهي قولها ان هذه العادة لما لم تكن جارية من قبل بلائحة حكومة بل بأمر ملك فلذلك لا يجب ان تمنع بلائحة بل يكفي لها امر ملك وعلى هذا امتنعت تلك العادة الذميمة واضطر الوزراء ان يصدروا لائحة بمنعها لما وجدوا انفسهم مغلوبين وكان كل ذلك بفضل الملكة وحدها

ولقد كان لطريقة الانتخاب اثر عظيم من عنايتها وجهدها فان تلك الطريقة كانت جارية فيما مضى على ان يجتمع الناس جماهير يزحم بعضهم بعضاً وهم ينتخبون النواب باصواتهم العالية وكان يجري في اثناء ذلك شيء كثير من الرشوة التي تجري الان عند بعض الممالك المقصرة ولكن الملكة ابطلت كل هذه الحالات الشائنة الفاسدة وصار الانتخاب يتم بالكتابة دون ان يدري احد بنية احد واختيار منتخب

اما تصدقها على الفقراء فقد كان متصلا على الدوام وقد حسب ما تنفقه كل سنة على المعوزين من راتبها فكان ١٥ الف جنيه وقد دامت على انفاقها منذ

فضربه برجله وقال قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل ان كنت تعقل انه قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لوئي ابن غالب يدعو الى الله عز وجل والى عبادته ثم انشأ يقول

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس باقتابها
تهوي الى مكة تبغي الهدى ... ما صادق الجن ككذابها
فارحل الى الصفوة من هاشم ... ليس قداماها كاذنابها

ثم لما كانت الليلة الثانية جاءه ففعل معه كالاول وانشده مثل هذا الشعر وكذلك فعل في الثالثة فسار سواد الى مكة للايمان به صلى الله عليه وسلم ثم قال يارسول الله قد قلت شعراً فاسمعه فقال هات فانشد

اتاني رئي مخبراً بعد هجعة ... ولم يك فيما قد تلاه بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... اتاك رسول من لوئي بن غالب
فشمرت من ذيل الازار ووسطت ... بي الذعلب الوجناء بين السباسب
فاشهد ان الله لارب غيره ... وانك مأمون على كل غائب
وانك ادنى المرسلين وسيلة ... الى الله يا ابن الاكرمين الاطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل ... وان كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

ومما ينسب الى ابليس ابن الجن هذان البيتان المشهوران ورأيت بعضهم يرويهما لابن المعتز ورأيتهما لغيره ايضاً والله اعلم

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا ... عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

اما ماسمع من جوف الاصنام فقد ورد ان نفراً من قريش منهم ورقة

ابن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل كانوا يجتمعون الى صنم فدخلوا عليه ليلة مولد رسول الله (صلعم) فرأوه مكباً على وجهه فانكروا ذلك فاخذوه فردوه كالذي كان فانقلب انقلاباً عنيفاً فردوه فانقلب الثالثة فقالوا ان هذا لامر حدث ثم انشد بعضهم ابياتاً يخاطب بها الصنم ويتعجب من امره ويسأله عن سبب تنكسه فسمع هاتف من جوف الصنم يقول بصوت جهير

تردى لمولود اضاءت بنوره ... جميع فجاج الارض شرقاً ومغربا

ومثله ما حكاه وائل بن حجر قال كان لي صنم فبينا انا نائم في الظهيرة اذ سمعت صوتاً منكراً من المخدع الذي به الصنم فاتيته فسجدت بين يديه فاذا قائل يقول

واعجبا لوائل بن حجر ... يخاطب يدري وهو ليس يدري
ماذا يرجي من نحيت صخر ... ليس بذي عرف ولا ذي نكر
ولا بذي نفع ولا ذي ضر ... لو كان ذا لب اطاع أمري

قال فقلت أسمعت ايها الهاتف الناصح فماذا تأمر من قال

ارحل الى يثرب ذات النخل ... وسر اليها سير مشمعل
فدن بدين الصائم المصلي ... محمد النبي خير الرسل

وحدث بعض الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين قال خرجت في طلب ابل لي فادركتها ثم اردت النوم وكنا اذا نزلنا بواد قلنا نعوذ بعزيز هذا الوادي فتوسدت ركبتي ناقتي واستعذت فاذا هاتف يقول

ويحك عذ بالله ذي الجلال ... مبين الحرام والحلال
ووحد الله ولا تبال ... ما كيد ذي الجن من الاهوال
اذ تذكر الله على الاحوال ... وفي سهول الارض والجبال

قد صار كيد الجن في سفال

قال فقلت له

يا ايها القائل ما تقول أرشد ذلك أم تضليل

فقال

جاء رسول الله ذو الخيرات جاء بياسين وحاميمات
وسور بعد مفصلات يأمر بالصلاة والزكاة
ويزجر الاقوام عن هنات اصبحن في الاسلام منكرات

ولما خفي امر النبي (صلعم) عند هجرته الى يثرب هو وابو بكر الصديق رضى الله عنه واختلفت الظنون في شأنهما سمعوا قائلاً يقول هذه الابيات

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي ام معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من امسى رفيق محمد
فيالقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لايجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا اختكم عن شاتها وانائها وانكم ان تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها في مصدر بعد مورد

فلما بلغت اهل المدينة من الانصار قال حسان وهي القطعة التي سبقت الاشارة اليها

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسري اليه ويقتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم وارشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا عمى وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على اهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم باسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وان قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم او في ضحى الغد

واذ قد اوردنا تلك المقدمات واقفنا عليها هذه الشواهد البينات فلا بد لنا من استخلاص نتيجة تكون القول الفصل في الحكم على الشعر والشعراء فلا نترك وراءها مضطرباً لخاطر ولا معتسفاً لحائر وما هذه النتيجة ونراها ظاهرة في ثنيات القول واضحة على اسارير الحديث الا تقدير وجوب اعتبار الشعب كلاماً صالحه صالح لاحرج على قائله وفاسده فاسد لافضل لناظمه ولااعتذار عن مساوئه ولا احالة لذنوبه. اما القول عن الصالح فانا قد رأينا وسمعنا فوق ماقدمنا كثيرين من ذوي الحاجات يتوسلون بالابيات من الشعر الى الله تعالى والى رسوله وكبار الآل والصحب في حاجاتهم فتقضى ومهماتهم فتكفى فهو اذن لايخرج عن حكم اخريات الوسائل الصالحة والدعوات المباركة وكم من طائف بالكعبة متعلق باستارها جعل الشعر وسيلته عندها فنال بغيته واصاب حاجته ثم انصرف لامفندا ولا ملوماً ولا موبخاً ولا مذموماً وهذه البردة الشريفة وهي القصيدة المشهورة بين ايدينا قد جمعت من البركات والاسرار ماظهرت دلائله وقامت شواهده. حدثني سيدي ووالدي حسن بن عبد الله منيف اطال الله حياته وادام علي مرضاته قال كنت في ايام حداثتي شديد الاعتداد بالبردة الشريفة حسن الاعتقاد فيها كثير التلاوة لها فالهمت تكرار هذا البيت

ياسيد الرسل ما لي من الوذ به سواك عند حلول الحادث العرم

قال فكنت لاافتر عن ذكره ولقد اكون مشتغلا بالمهمات من شؤوني ثم لاينقطع من لساني وكنت اذا استيقظت من النوم اخبرت انني كنت اردده نائماً فاشرق بسر هذا البيت ضميري وحصل لي ببركته اتصال عجيب واصابني خير كثير بسببه فعليك ياولدي بهذه القصيدة المباركة واذا سرك ان يفتح الله لك احسن الفتح ويمدك بروحانية نبيه الاعظم صلى الله عليه وسلم فاعمل فكرك في تشطيرها واعلم ان هذه امنيتي التي ان حققتها اقررت عيني بالجمع بين المنى وبيني. وقد تلقيت هذه الوصاة الشريفة بالقبول والعمل فحفظت القصيدة عن ظهر قلب واجازني سيدي الوالد على حفظها وواظبت على تلاوتها واني الآن في تشطيرها. وكثير من الشعر غير هذه القصيدة المباركة قد ضمن من البركة ماانتفع به الكثيرون. اذن صح ان للشعر حكم باقي الكلام في الشرف والضعة والجواز والمنع لايمتاز عنه الا بالوزن والوزن وحده لايكفي للحكم عليه بالحظر او الاباحة بلى هو يرفع رتبته ويشرف مكانته ويكسبه تأثيراً على النفس وحسن موقع فيها ويعينه على تملك عواطفها واقتياد ملكاتها فيتصرف فيها ادق تصرف وينزع بها اذا شاء الى غير طباعها المألوفة وسجاياها المعروفة رأت بذلك وحشة او وجدت ألماً او اصابت مكروهاً لم تكن لتغشى مواطنه لولا هذا القائد القوي والدافع الشديد. ترى اللحز البخيل اذا رقاه الشاعر بالرقية من جيد شعره استحال بخله سماحة وجوداً فيهتز اهتزاز السمح الجواد وتسيل كفه بالنوال ولا كسيل العهاد فتخاله المقصود بقول الاول

تراه اذا ماجئته متهللا كانك تعطيه الذي انت سائله

وربما كان ألام مما قيل فيه

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

اوكان كالحطيئة وما ذكر البخل واللوم الا ذكرناه قالوا أتى الحطيئة رجل وهو في غنم له فقال ياصاحب الغنم السلام عليك فرفع الحطيئة العصا وقال انها عجراء من سلم فقال الرجل اني ضيف فقال للضيفان اعدتها فاعاد السلام فقال ان شئت قمت بها اليك. قالوا ومر به بن حمامة وهو جالس بفناء بيته فقال السلام عليكم فقال قد قلت مالا ينكر فقال خرجت من عند اهلي بغير زاد قال ماضمنت لاهلك قراك قال افتأذن لي ان آتي ظل بيتك فقال دونك الجبل يفيء عليك قال انا ابن حمامة قال انصرف وكن ابن اي طائر شئت روي هذا عن ابي الاسود الدئلي وعجيب للحطيئة كيف يكون ذلك شأنه من البخل وهو الشاعر الذي اغرق في شأن الكرم والكرام وذم اللؤم واللئام ولقد يحار المرء اذا علم ان صاحب هذا الحديث هو ذلك القائل

من يفعل الخير لايعدم جوائزه لايذهب العرف بين الله والناس

ولكن لاعجب ولا حيرة فهو من الذين يقولون مالا يفعلون. كذلك قال ابن هرمة الشاعر المفلق البليغ عن نفسه وهو بمكان الحطيئة من البخل والكذب وستعلم ذلك من اخباره فمن شعره قوله

اغشى الطريق بقبتي ورواقها واحل في قلل الربى واقيم

ان امرءاً جعل الطريق لبيته طنباً وانكر حقه للئيم

ومن قوله ايضاً ولا اخالك الا معجباً بسماحته مثنياً على كرم نفسه وجود راحته

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ... ليسقط عنه وهو بالرمل معصم
عوى في سواد الليل بعد اغتساقه ... لينبح كلب او ليفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى ... له عند اتيان الملبين مطعم
يكاد اذا ما ابصر الضيف مقبلا ... يكلمه من حبه وهو اعجم

قال رجل اتيناه في جماعة من قريش وقد احببنا ان يتنزه عندنا ومشينا بزاد كثير فخرج علينا وقال ماجاء بكم قلنا شعرك حيث قلت (ان امرءاً جعل الطريق البيتين) وقولك ايضاً

واذا تنور را كب مستنبح ... نبحت فدلته عليّ كلابي
وعوين يستعجلنه فلقينه ... يضربنه بشراسف الاذناب

وسمعناك تقول

كم ناقة قد وجأت منخرها ... بمستهل الشؤبوب او جمل
لا امتع العود بالنصال ولا ... ابتاع الا قريبة الاجل

فنظر الينا وقال ما على وجه الارض عصبة اسخف عقولا منكم اما سمعتم قول الله عز وجل وانهم يقولون مالا يفعلون والله اني لاقول ما لا افعل وانتم تريدون ان افعل ما اقول والله لا اغضب ربي في رضاكم فضحكنا منه واخرجناه معنا يتنزه حتى فني الزاد اه

اقول وما اقربه الى المغفرة اذا هو اغضب ربه على زعمه فصدق في قوله وانجح آمليه وما كان الله ليغضب على رجل دعا الناس الى معروفه بشعر طيره وقول سيره حتى اذا جاؤوه صدقهم ما قال وبالغ ما املوا فعادوا يحمدونه واثنوا يمدحونه

(رجع ما انقطع) قلنا ان الشعر يستقيد النفوس الى نقائض سجاياها

واضداد طباعها فهو كما يمتري كف الضنين ويحل عرى مال البخيل كذلك هو يطير بالجبان الى مآزم القتال حيث يرى مساقط الآجال متكنفاً بروائع الاهوال فترى الهيابة الفرق اذا قرعت سمعه القافية بعثت في نفسه الحماسة واذكت في صدره جذوة الحمية فخف الى حيث يرى الحتف مكشراً عن انيابه والموت مبدياً عن خضابه ينصب صدره لصدور الرديني يراها كأشطان القليب فلا يبالي ان تنوشه ويمد وتينه حيث مواقع المشرفيات يحسبها البروق اللوامع فلا يهاب ان تناله فلو انك سئلت عنه لقلت ما انبئكم عن رجل شهدته وقد اقتحم الزحوف واخترق الصفوف

واثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت اخمصك الحشر

ثم استرسلت تصفه وصف من لو تمثل له شخص المنون لطعنه في الاول كما يقول الداهية العبسي وهو لولا تلك القافية لظل كصاحب هند اذ تقول

قامت تشجعني هند فقلت لها ... ان الشجاعة مقرون بها العطب
ياهند لا والذي حج الحجيج له ... لا يشتهي الموت عندي من له ادب

ولما فتئ كذاك الذي علم ان ليس له غير رأسه راس. فعصى اميره وقال حين جد به المراس

يقول لي الامير بغير علم ... تقدم حين جد بنا المراس
ومالي ان اطعتك من حياة ... ومالي غير هذا الراس راس

او لكان كالذى خاف على نخارته ان تحطم. فغر ولو علم انه يبتاع في السوق مثلها ما بالى ان يتقدم

الا لاتلمني ان فررت فانني اخاف على فخارتي ان تحطما
فلو انني ابتاع في السوق مثلها وجدك ما باليت ان اتقدما

(ستأتي البقية) احمد محرم

قول لبعض الناس
في المآتم والاعراس
٩

صحا القلم من سكرته واستيقظ من رقدته آسفاً لظروف عاقته عن خدمه الادب حزيناً بدواع اخرته عن القيام بما وجب مندهشاً لما سكن الليل والنهار من عجائب القضاء وغرائب الاقدار

وعد عند الشروع في الغيبة بسرعة الاوبه ليتم في اليوم ما ابتداه بالامس وليقضي من شؤون الحديث وشجونه حاجة في النفس فكرّ عليه الجديدان بما لم يكن في الحسبان وغار عليه الدهر بما يشيب به الرأس وينحني له الظهر ولكن ما للقراء الكرام ولهذا الكلام فهو كما يقولون من الخصوصيات والانصات لمثله معدود عند البعض من المحرمات

فأولى للقلم ان يقتصر على الاشارة لعذره وأجدر به ان لا يناجي غير الحكيم الاعلى بتفصيل امره ثم ليعد الى نشر ما اخذ على عهدته جرياً على سالف عهده وسابق خدمته وليخرج من باب تلك النصائح الى غيره

من سبل التهذيب والنصائح لينظر القوم ان كنا فيما اسلفناه فقط مقصرين او نحن في غير ذلك ايضاً محلقين ومقصرين ولكن قبل ان يبرح هذه الدار وقبل ان تنطفئ تلك النار لا بد له من الاشارة الى امر عظيم والتنبيه على خطاء في تصرفات القوم جسيم

يقضى على الانسان في سفره لانقضاء اجله ووفاء عمره فينهض من عشيرته من يكد ويجد لاستحضار جثته ويلتمس لذلك الاعانه من ذوي الجاه والمكانه وينفق من اجله الدرهم والدينار للطبيب والحداد والنجار كل هذا كما يزعمون ليضموا الفرع الى اصله وليجمعوا في صعيد واحد آل البيت كله

توفي عظيم من عظماء مصر على ظهر سفينة في وسط البحر فانفذ فيه الربان امره وجعل سعة اللجة للجثة عوضاً عن ضيق القبر فقام آل المتوفى يطلبونها بما تصل اليه ايديهم وتوسلوا لامنيتهم هذه باصدقائهم واعاديهم وهجروا لاجلها المضاجع والبيوت وتربصوا نبي الله يونس ليخرج من بطن الحوت ولكن خابت في التيار آمالهم فرجعوا من حيث اتوا وقد حبطت اعمالهم

* * *

فيالَيت شعري ما الذي بعث هؤلاء لامثال تلك المساعي الحرقاء ايخشون ان المتوفى يبعده الله عن رحمته اذا لم يدفن في تربة بلدته ام يظنون ان الله لايختص بكرامته الا من دفن بجنب قرابته ام يضنون على الحيتان بما يجودون به على الديدان

مهلا ياقوم فالملك كله لله وستقبض على نواصي الجميع يداه ويحشر